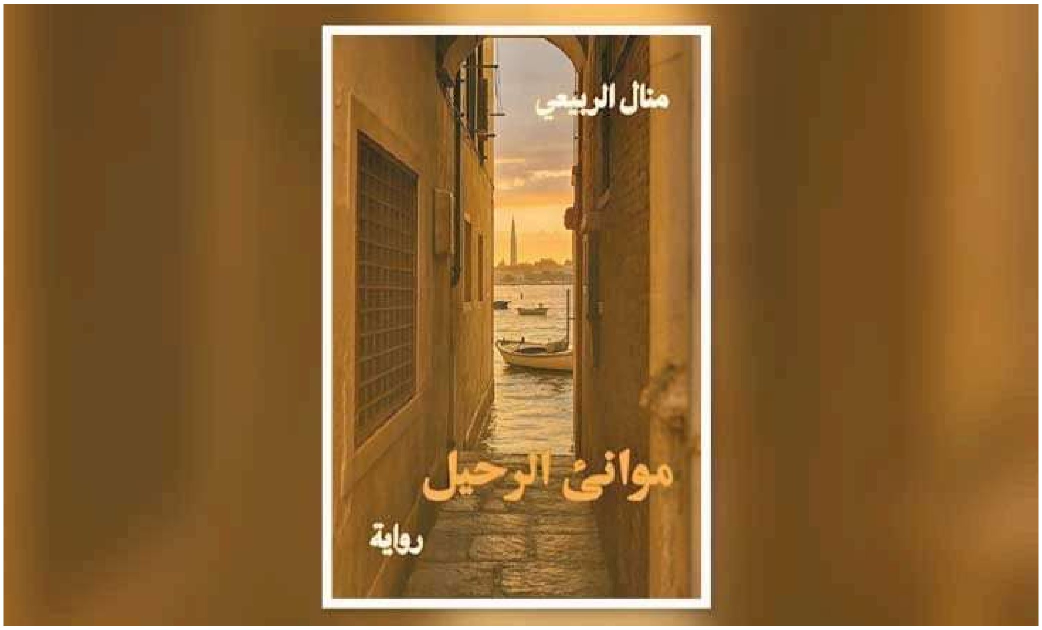
مدينة طرابلس في «موانئ الرحيل»: ذاكرة البحر وندبة الحرب

4 - نوفمبر - 2025



عندما أقامت ورد، بطلة رواية موانئ الرحيل لمنال الربيعي في مدينة طرابلس، شهدت تحولها من درةٍ على البحر المتوسط إلى مدينة أنهكها القهر والاضطهاد، إذ انعكست آثار الحروب والصراعات على أهلها ومعالمها، فتبدلت أحوال الناس كما تبدل البحر والبلد من حولهم. قد تنقلب حياة الإنسان في لحظة، ويتغير مسارها كلياً بسبب حدث واحد، مثلما حصل مع ورد، حين مرض والدها واقتحم زين حياتها، فكان حبه يلاحقها كما تفعل الأمواج حين تطارد المارة على الشاطئ.

لم تكن علاقة ورد بوالدها علاقة مضطربة، بل قامت على صداقة عميقة ومتينة، جعلته يبوح لها بكُل ما يشغله من هواجس وهموم. في المقابل، كان زين يعاني من شعور الوحدة والضعف، على الرغم من وجود عائلته إلى جانبه. وقد شكلت علاقتها القريبة بوالدها، ورفقتها له على الشاطئ، صلة وجدانية عميقة بالبحر، تماماً كما هو حال معظم الطرابلسيين، الذين لا يستطيعون الانفصال عن هذا البحر الذي يُعد جزءاً من ذاكرتهم وهويتهم. هذا البحر المتقلب، الذي شكل عوالم أولئك

الذين قصدوه طلباً للحُب، أو للعمل، حتى أَلِفَه أهل المدينة كما أَلِفَ هو إيقاع حياة الصيادين على شواطئه.

وأصبحت هذه المهن، بما فيها الحُب، في الآونة الأخيرة بلا جدوى على ضفاف البحر، لاسيما في ظل الأزمات الاقتصادية، التي تعصف بالبلاد عامة، وطرابلس على وجه الخصوص، حتى الحُب الصادق عجز عن أن يغير العالم الواسع، أو يضفي عليه شيئاً من الضوء واللون وسط هذه العتمة والواقع القاسي. وتوقعت البطلة «ورد» منذ البداية انحدار أوضاعها الأسرية والمجتمعية، ولم تتمكن حتى علاقتها بالبحر من انتشالها من ذلك المصير. وقد صدق حدسها في ما بعد؛ مما جعلها تقول عن تجاهلها المبكر لذلك الإحساس: «يُخطئ المرء عندما يتجاهل حدسه، فالإيمان بالخالق والكون، قد بدأ بالقلب ثم تدرج بعدها إلى العقل والمنطق»، بيد أن هذه الأحداث تشكل نقطة تحول حاسمة في علاقة الإنسان بمحيطه، إذ تترك أثراً عميقاً يعيد بلورة رؤيته للحياة من حوله؛ لذا، بعد ما تبين لها صدق توقعاتها، لم تعد البطلة تتعامل مع الآخرين كما كانت من قبل، بل تغير موقفها وتبدلت رؤيتها لهم.

كانت طرابلس مختلفة في كُل شيء: طبيعتها، ناسها، تاريخها، وجغرافيتها، حتى الموت هناك بدا أكثر حميمية، والفقد أكثر ألفة وقرباً من الروح، إلا أنها اختبرت الحرب الأهلية وصراعات الغرباء على أرضها بالوكالة، وعانى أهلها من الاغتراب والنزوح والهجرة، حتى غدت أوضاعها مشابهة لأحوال المدن اللبنانية الأخرى. كما إن لبنان عامةً، وطرابلس بشكلٍ خاص، تحمل العبء الأكبر من موجات النزوح السوري منذ اندلاع الأزمة في عام 2011، وقد أسهمت الحدود الجغرافية المشتركة، لاسيما في منطقة وادي خالد، التي تمتد لأكثر من 18 كيلومتراً، في تسهيل هذا التدفق الكبير، من خلال معابر غير شرعية ترابية، «ما زاد من عمق الأزمة الاقتصادية التي كانت قد بدأت تظهر تدريجياً في البلد» على حد قول الكاتبة. وقد شكلت هذه الأحداث كُلها منعطفاً حاسماً في المسار

الاجتماعي والسياسي والاقتصادي في لبنان؛ حيث عانى اللبنانيون من مظاهر الظلم والتهميش وفقدان العدالة في ظل النظام السياسي الطائفي. ومن هذا المنطلق، جاءت الرواية لتُجسد وقع الأزمات المتتالية التي عصفت بلبنان، وطرابلس خصوصاً.

لا يختلف اثنان على أن «الثورة» تُولد من رحم المعاناة، ومدينة طرابلس، على الرغم من كونها العاصمة الثانية للبنان، عاشت الفقر والتهميش من قبل الدولة، فكان الألم أشد، والنقمة أعظم. ومع ذلك، فإن حماس الأهالي وإصرارهم أفضى إلى واقع اجتماعي جديد أفرزته ثورتهم آنذاك، إذ بدت المدينة أكثر انفتاحاً وانسجاماً بين فئاتها المختلفة، خارج أطر الأحزاب والطوائف والأيديولوجيات، هذا التغير الاجتماعي لاحقاً أثار انزعاج بعض رموز السلطة، وأصبح مصدر قلق واستفزاز لهم. ووصفت الراوية هذه الانتفاضات ضد الظلم وتدهور الخدمات بقولها: «الانسجام الوطني ما هو إلا سراب قد يختفي عند أول شرارة طائفية، ولو كانت كلمة، فهي قادرة على إشعال حرب أهلية تماماً مثلما حصل في الماضي». لذا، غالبا ما شعر اللبنانيون بالخيبة والخذلان، وهي مشاعر إحباط عميقة دفعت العديد منهم إلى مغادرة البلاد مراراً بحثاً عن واقع أفضل. وتراجعت أوضاع الأفراد نتيجة الأزمات الاقتصادية والسياسية، في بلد يعاني من ركود عام على مختلف المستويات. ويرتبط هذا الجمود ارتباطاً وثيقاً بنظام الأفكار السائد في المجتمع؛ إذ إن تغير الأفكار يؤدي إلى تغير الخصائص الاجتماعية بالاتجاه نفسه، ولأن الأفكار تمثل عنصراً أساساً في عملية التطور، فإن النهضة لا تُبنى إلا على منظومة فكرية متماسكة قادرة على تقديم حلول فعالة لمشكلاتها، فضلاً عن أن تطور المجتمعات الحديثة يرتكز بالأساس على معايير فكرية واضحة. وكان اللبنانيون يتحملون تبعات وجود طبقة حاكمة متخلفة، استنزفت ثروات البلاد وطمست معالم جماله؛ لذلك اعتادوا على خضات كثيرة مماثلة عبر تاريخ بلادهم، فهذا هو قَدر الجغرافيا والتاريخ معاً.

والموت الذي ظل يلاحق اللبنانيين انتزع من ورد كُل شعورها بالحياة، فبعد أن فقدت عائلتها نتيجة الحرائق المستمرة في البلد، سواء كانت بسبب الإهمال أو التفجيرات، قررت الرحيل مع زين إلى إسطنبول، باعتبارها بوابة محتملة نحو أوروبا. من هذا القرار، تُظهر الكاتبة كيف يتلاشى مشهد الوطن ومدينة طرابلس من وعي المهاجر لحظة المغادرة؛ ليصبح الرحيل بداية لمسار جديد. وهكذا، تتحول «موانئ الرحيل» إلى رموز لانطلاقات متعددة، تجمع بين الألم والأمل، بين الفقدان والبحث عن حياة أخرى. وبهذا الرحيل عن طرابلس، تنطفئ شمس لبنان التي كانت تشرق على البلدان المجاورة، ويغيب معها النور الذي كان يمنح الحياة معناها. فلن يجد المغترب ضوءاً في وطنه البديل، إذ يظل الحنين يحجب عنه إشراق أي مكان آخر؛ لذا قالت الراوية: «عندما وطئت باب الشقة الجديدة تكوّن لدى «ورد» إحساس شديد بالبرد، لم يكن ناتجاً عن برودة الطقس، إنما عن مشاعر الغربة التي انتابتها فجأةً، فهي لم تكن مستعدةً بعد لهذا التغيير العاصف الذي طرأ على مجرى حياتها الهادئ، ولم تتوقع يوماً أن تكون بعيدة عن مدينتها طرابلس وعن بيت عائلتها، لكنها تدرك أن كُل تلك الصور باتت من الماضي، وينبغي عليها التأقلم مع هذه البيئة الجديدة».

وهنا يمكن القول إن الكاتبة استطاعت أن تحول تفاصيل الحياة اليومية، كالانتقال إلى منزل جديد، إلى تجربة وجودية عميقة تعبر عن شعور الفقد وعدم الاستقرار؛ ما يمنح النص بعداً دراميا داخلياً يعكس رؤيتها لحياة من اختاروا الرحيل وفقدوا جذورهم. وعليه، شهدت مدينة إسطنبول تنوعاً ديموغرافياً وعرقياً واسعاً، فرضته الظروف الإقليمية؛ حيث نشأت فيها تجمعات عربية وكردية في مناطق محددة، وبرزت أحياء يغلب عليها طابع جاليات معينة كالسوريين أو الفلسطينيين أو العراقيين. وبهذا التحول، أصبحت إسطنبول مدينة جامعة لمختلف الثقافات والعادات والتقاليد التي جلبها الوافدون معهم؛ ما أدى إلى

تصاعد مشاعر التنافس والغيرة بين السكان المحليين (الأتراك) والوافدين العرب، الذين تزايدت أعدادهم بشكل كبير خلال العقد الأخير.. «وعلى الرغم من كُل الرغبة في الهجرة والحلم بالرحيل، الذي يتوق له معظم سكان البلدان التي تعيش حروباً اقتصادية واجتماعية وسياسية، إلا أن الانتماء وحُب الوطن يكاد لا يغيب عن أحاديث وتجمعات ومناسبات المقيمين في إسطنبول التي تحولت إلى «قرية» وطنية وعرقية متنوعة للعديد من الجاليات العربية، التي شكلت لها أحياء ومجمعات سكنية تمارس فيها طقوس «الوطن البديل»، والذين أرغموا على الفرار منه تحت ضغط الحرب والقتل والفقر»، كما بينت الراوية.

أنهت منال الربيعي رواياتها بمشهدٍ مأساوي تفقد فيه ورد آخر ما تبقى لها من روابط الحياة، إذ تخسر زين في خضم الكوارث الطبيعية التي اجتاحت تركيا، البلد الذي ظنت أنه سيكون لها بداية جديدة. ويتضح من هذا الحدث كيف يمكن أن يُسلب الإنسان آخر خيطٍ يشده إلى ماضيه ووطنه، فيتضاعف شعوره بالغربة والاقتلاع. تبقى طرابلس في وجدان البطلة ندبة مفتوحة لا تندمل، فهي المدينة التي فقدت فيها عائلتها، ثم فقدت بسببها في المنافي من أحبته. وتتجاوز الرواية سرد حكاية الفقد إلى تجسيد مأساة الاغتراب الوجودي، إذ يجتمع في ورد الحنين والنقمة في آنٍ واحد: حنينٌ إلى الوطن الذي لم يعد موجوداً كما عرفته، ونقمةٌ على وطنٍ لم يعرف كيف يحتضن أبناءه ويحميهم من الانكسار.
لطالما شكلت مدينة طرابلس المنفذ الأخير للهروب بالنسبة لكثير من اللبنانيين، حتى إن كان هذا الهروب محفوفاً بالموت، غرقاً في البحر. فقد كان للمدينة النصيب الأكبر من هذه المآسي؛ نظراً لقرب شواطئها من محطات الهجرة غير الشرعية نحو تركيا وأوروبا، بعد أن تحولت إلى معبر للأحلام الضائعة في الوطن، لكن النجاة الجسدية لم تكن كافية، فحتى من نجا مثل ورد، عاش موتاً من نوع آخر؛ موت الحنين والفقد والانكسار الداخلي.

تُصنف هذه الرواية، ضمن روايات المدينة؛ حيث تتحول المدينة نفسها إلى بطلٍ سردي، وإلى مسرحٍ تتبلور فيه الشخصيات وتُعاد صياغتها، ورواية المدينة هي التي تتجاوز فيها المدينة كونها مجرد خلفية للأحداث لتغدو عنصراً فاعلاً في بنية السرد، تمتلك حضوراً يؤثر في الشخصيات ويصوغ مصائرهم. فهي ليست مكاناً محايداً، بل كيان حي يتفاعل مع الأبطال، يُبدلهم كما يُبدلونه، ويُجسد هواجسهم وتاريخهم الجمعي. في هذا النوع من الروايات، تُولَد الشخصيات من رحم المدينة، وتتجلى ملامحها في فضائها، إذ تُسهم طبيعتها وثقافتها وصراعاتها في تحديد هوياتهم وتحولاتهم النفسية والاجتماعية. فالمدينة، في هذا المعنى، ليست شوارع وجدراناً، بل هي كائنٌ سردي نابضٌ بالحياة يُحرك السرد ويمنحه إيقاعه، لتغدو الحكاية في جوهرها حكاية عن المدينة بقدر ما هي حكاية عن ساكنيها. واستناداً إلى ما ذكرته الرواية، فإن «موانئ الرحيل» ليست حكاية لبنانية فحسب، بل رواية عن كُل من عاش في واقعٍ عربي بائس، واتخذ قرار الرحيل. هي صورة شاملة للمواطن العربي الذي فقد ذاته، ووطنه، وحتى الإيمان بفكرة الوطن البديل. وهكذا كانت مدينة طرابلس بالنسبة إلى كثيرٍ من اللبنانيين؛ مَسكناً للذاكرة، ومسرحاً تلتقي فيه الحكايات الفردية مع ملامح الوطن بأسره.

إلى جانب ذلك، تُمثل مدينة طرابلس كياناً اجتماعياً، يُجسد خلاصة التفاعل بين الإنسان وبيئته، فهي ليست مجرد حيز جغرافي، بل إنها انعكاس حي لأخلاق سكانها، ووعيهم، وأفكارهم. مثلها مثل أي نتاج اجتماعي آخر، تحمل في طياتها بصمات ساكنيها وتاريخهم. ومنذ القدم، شكل المكان السطح الأقرب الذي دون عليه الإنسان ثقافته، وهواجسه، وفنونه، وآماله ومخاوفه؛ فكان بمثابة الذاكرة الحية التي تنقل ماضيه إلى الأجيال القادمة. ومن خلال الأمكنة يمكننا قراءة البنية النفسية للمجتمع، وطريقة عيشه، وعلاقته بالطبيعة، أي قراءة المكان بوصفه وثيقة تاريخية حية. وفي العمل الأدبي، يتحول المكان إلى

شخصية قائمة بذاتها، وإلى مسافة تُقاس بالكلمات وتُحدد سمات السرد.

إذن، تُصور رواية «موانئ الرحيل» المجتمع اللبناني الجريح، الذي تخلى عنه أولئك العاجزون عن احتمال استمرار النزيف، بيد أنهم ما إن غادروا حتى وجدوا أنفسهم في نزفٍ آخر، وفي اغترابٍ جديد؛ فالتخلي لا يُفضي دائماً إلى الشفاء، بل قد يكون بدايةً لجرحٍ من نوعٍ آخر، أكثر غموضاً ووحشة.

كاتبة عراقية

كلمات مفتاحية

ملاك أشرف | منال الربيعي